أدوات الشّرْط غير الجازمة

دراسة لغويّة تداوُليّة في (فقه السيرة النبوية)

د. محمد عبد الله محمد سلامة
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب
جامعة طرابلس

مقدِّمـــــــــــة:

المذهب اللسانيّ يدرُس أثر وعلاقة النشاط اللغويّ بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغويّة بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، وسياق ومقام هذا الخطاب، وحال المتلقي، وكذا البحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة، والبحث في أسباب الفشل في هذا التواصل؛ كلّ ما سبق يطلق عليه (التداوُليّة)، التي هي دراسة السياقات المختلفة، والوسائل المستخدمة لغويًّا للتعبير عن عمل معيّن، إذن التداولية هي دراسة اللغة في الاستعمال أو التواصل، وسيأتي تعريف لها أشمل.

أقسام اللغة متنوّعة ومتعدّدة، أهمها قسم النحو، فهو الركيزة والأساس لجلّ اللغات الإنسانية، وفي مقدّمتها العربية والإنجليزية، وأبواب النحو كثيرة، منها باب الشرط، موضع ومحلّ الوقوف في هذه الدراسة، وإذا سألتَ: لم كان أسلوب الشرط؟ وما علاقة الشرط بالتداولية؟. العلاقة تكمن في أنّ النحو رافدٌ ومؤيِّد للنظرية التداوُليّة، وأجيب عن التساؤل الأوّل فأقول: لما كانت الدراسة تتناول النصّ السرديّ، وكان من دلالة الشرط ووظائفه التفصيل والبسط والتطويل والاستقبال، فوُجِد أنّ الأسلوب الشرطيّ مركزٌ ضبطيّ لملامح وأسس النص السرديّ، كما أن له أكثر من بُعْد، منها البُعْد الوظيفيّ النحويّ، والبعد الدلاليّ، والأسلوبي، والتداوُليّ، وهو أهمّها، ومن هذه الأبعاد تلحّ الحاجة إلى إنجاز دراسات لغويّة تكامُليّة مُكمّلة، توقفنا على ثمرة القواعد النظريّة؛ إذ قواعد النحو لا ينبغي تفسيرها منفصلة عن السياق والكلام، كما أنّ الوقوف على هذه الأبعاد تنقل

الاهتمام من اللغة المجرّدة إلى اللغة المستعملة من قبل المتكلم (الكاتب) ؛ ليتحوّل الدرس اللسانيّ إلى درسٍ للإنجاز اللغويّ.

ميدان الدراسة: كتاب (فقه السيرة النبوية) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، هو حقل الدراسة والتطبيق والإجراء، وقد قمت في أبحاثي السابقة بترجمة للمؤلف، والتعريف بكتاب (فقه السيرة النبوية)[1].

وأمّا سبب اختيار هذا الموضوع فقد كانت لي دراستان حول كتاب (فقه السيرة النبوية) للبوطي، فالأولى معجمية دلالية، عنونتها بـ(الدلالة الذاتيّة والإيحائيّة في فقه السيرة النبويّة)، والثانية دراسة أسلوبيّة هي (دلالة أدوات العطف وبلاغتها في النص السرديّ)، وهي قائمة على هذا الكتاب أيضًا، والأسلوبية تتقاطع - كما قيل- مع التداولية في أنهما يدرسان اللغة في حال حيويتها ؛ في حال الكلام ؛ في الاستعمال، ولما رأيت دسامة الكتاب أكملتُ ما اختطته وعزمت عليه، وهو إسقاط النظرية الدلالية والأسلوبية والتداولية على نصوص ومادة الكتاب، فأتيت على آخر وأحدث النظريات اللغوية ؛ لأنهي بها اهتمامي اللسانيّ، وهي النظرية التداوُلية ؛ التي هي امتدادٌ للدرس اللغويّ الدلاليّ في مباحثه وأسسه ومواضعه وأهدافه، وتلتقي مع الأسلوبية في المجال والهدف أيضًا.

عملي ومنهجي في البحث: اتبعْتُ المنهج الاستقرائيّ، والمنهج الوصفيّ، والتحليليّ، فكان منهجي تكامُليًّا ؛ من وصف وتحليل مبنيّان على استقراء، فاجتزأتُ نصوصًا مختلفة المواضع من الكتاب، ولكي يمكننا الوصول إلى فهم دلالة الشرط في النص السرديّ فقد وقفتُ على الأدوات الشرطية غير الجازمة، فكان التعويل عليها ؛ لأنها مع مدخولها تعتبر أفعالًا كلاميّة –وهي من أهمّ نظريّات التداوليّة- تحمل مقاصد وغايات، والشرط وأدواته إحدى وسائل التواصل والوصول إلى تلك الغايات، ولعلّ وقوفي على نصوص هذا الكتاب ستبين كيفية تناوُل الإمام البوطيّ - رحمه الله- واستعماله اللغويّ لأسس وقواعد الشرط في العبارات والتراكيب، التي كوَّنت نصًّا لديه، ومدى اطّرادها من عدمه، ودلالتها المشهورة وغير المشهورة، وقد استعنتُ في بحثي بمصادر أثبتُّها في نهاية البحث، مع خاتمة احتوت على نتائج.

دراسات سابقة مشابهة: باب الشرط له خاصية نحوية ودلالية، فهو يرتبط بالمفردات والجمل، وله

[1]- انظر: (الدلالة الذاتية والإيحائية) للباحث، مجلة اللسان المبين، العدد الثالث عشر، سنة 2018م.

دلالتان هما الماضي والمستقبل ؛ فلا يدلّ على الحال ؛ لذا وغيره كان الشرط محلّ اهتمام كثيرٍ من الدراسات والأبحاث، فاختلفت في ميدان الدراسة ؛ أي في الجانب التطبيقيّ، وتشابهت واتّحدت في الجانب النظريّ، ومن هذه الدراسات:

- تحليل جملة الشرط وبيان أثرها على المعنى التفسيري. دراسة تطبيقيّة على سور: (الأعراف، الأنفال، التوبة)، رسالة ماجستير، تقديم: أحمد محمد البيك، الجامعة الإسلامية بغزة- فلسطين، 1435 هـ- 2014 م.
- أسلوب الشرط في ديوان الهذليّين، تقديم: أحمد بشارة سليمان، أطروحة دكتوراه، جامعة أمّ درمان الإسلامية - السودان، 2007 م.
- أسلوبا الشرط والقسم بين لغة الشعر الجاهلي ولغة الحديث الشريف، رسالة ماجستير، تقديم: جملة داوود عياش، جامعة الشرق الأوسط- لبنان، مايو 2010م.
- أسلوب الشرط ودلالته في الحديث الشريف، رسالة ماجستير، تقديم: دالية حسن خليل حسين، الجامعة الأردنية- عمّان، 2002 م.
- دلالة الارتباط في أسلوب الشرط، بحث مقدّم من الأستاذ: أبو بكر زروقي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة محمد خيضرة. بسكرة- الجزائر، العدد السادس لسنة: 2010 م.
- أسلوب الشرط في الحديث النبوي الشريف. دراسة تطبيقية على نماذج من صحيح البخاريّ، تقديم: فاطمة محمد علي عمر.

تعليقٌ على ما سبق من دراسات: إنّ هذه الأبحاث متنوِّعة في مادّتها وحقولها، متقاربة في قواعدها النحوية النظرية، وما يخالف دراستي هذه وتلك الدراسات ؛ الكاتب والنصّ والعصر ؛ وإلا فإنّ الدراسات اللغوية جميعها تكاد تكون متقاربة ؛ بل متّحدة.

- **التداوُليّة وقواعد النحو وبلاغة النّصّ:** من قبيل التذكير والربط والإيفاء بما سبق ؛ فقد عرَّف علماؤنا التداوُليّة بأنها: ((علم لغويّ يختصّ بتحليل عمليات الكلام، ووظائف الأقوال

اللغويّة وخصائصها خلال إجراءات التواصل))[1]. تركّز التداوليّة والبلاغة في رأي اللغويين[2] على الاستعمال اللغويّ الحاذق، وهذا الحذق لا يكون إلا بإجادة الكاتب أو المتكلّم وتفنُّنه في استخدام القواعد النظريّة النحويّة، ومنها قواعد أسلوب الشرط بجميع أركانه؛ فيلتزم بقاعدة المعيارية، ومستوى إدراكه وتطبيقه وإجادته وبلاغته يُقاس بمدى دلالة المقول دلالة وافية، وصولًا إلى التواصُل اللغويّ، فيقتنع القارئ بما سمع أو قرأ، فالنحو معين ومساعد؛ بل هو أساس ثابت من أسس التداوُليّة؛ فالعلاقة تكمُن في أنّ قواعد النحو رافدٌ ومؤيِّد للنظرية التداوليّة[3]. إنّ من أولويات التداولية واهتمامها التواصُل؟! وكيف يكون تواصل بطريق وبوسيلة مشوشة؟! فالاهتمام بالشكل لا يقلّ عن الاهتمام بالمضمون، وهذا يتضمّن دراسة المنطوق اللغويّ دراسة تحليلية، البلاغة تبين جمال اللغة من خلال التحليل؛ فالمراد والمعنى ومعنى المعنى من أسس البلاغة، و(لكلّ مقام مقال) و(مراعاة مقتضى الحال) من مفاتيح البلاغة، وهذه أيضًا أسسٌ تهتمّ بها التداوُلية، والنحو والبلاغة مرتبطان وملتصقان ببعضهما، وانظر إلى كتاب (دلائل الإعجاز) للشيخ عبد القاهر الجرجانيّ ترى الالتحام والتوأمة بينهما. إنّ التداوُلية مرحلة لاحقة تأتي بعد المرحلتين: التركيبية، ثم المعجمية والدلالية، وإننا لنلحظ اتساع مجالات البحث في التداوُليّة في الآونة الأخيرة، فالتداولية تعرض للمعنى الاستعماليّ؛ فالبحث والتحليل من السياق، مع مراعاة المتكلّم والمتلّقي؛ أي دراسة المتكلم وكلّ ما يتصل به، ومعرفة العناصر الأخرى التي تؤثّر في فهم المعنى، وما هدف الكاتب؟ ومَنْ مُخاطَبُه؟ وما علاقتُه بالمتكلّم؟ كلُّها من عناصر التداولية، وبمقارنة مختصرة محدودة بين أسس وعايير التداوُليّة والبلاغة؛ تبين أنهما يراعيان وينظران إلى:

- مدى قدرة وبراعة استعمال الكاتب للغة وفق الأسس والقواعد النظرية النحوية.
- السياق الوارد فيه هذا الاستعمال.
- نوع المادة المقام عليها التحليل.
- فحوى المادة وهدفها الاجتماعي.
- الخصائص والأسس للنص؛ سواء أكان سرديًّا أم غيره.

[1]- انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص ص: 23.
[2]- انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص ص: 123، وما بعدها.
[3]- انظر: في اللسانيات التداولية ص: 126، وما بعدها.

- مراعاة مقتضى الحال، وأنّ لكل مقام مقالًا.
- نفخ الروح في القواعد النظرية النحوية؛ بغية إحيائها ونمائها وتطويرها، تطويرًا لا يخرج عن المطَّرد والمقيس والمجمع عليه.
- النظر في العلاقة بين النص وقارئه.

مما ذكر نخلص إلى أنّ: ((البلاغة والتداوُليّة البرجماتية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي؛ على أساس أنّ النّص اللغويّ في جملته إنما هو نَصٌّ في موقف))[1]، ويستمرّ الدكتور صلاح فضل في كلامه إلى أن يقول: ((أنه من المناسب تضييق مجال دلالة البلاغة باعتبارها أداة ذرائعية...التداولية قاسم مشترك بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية))[2].

أسلوب البوطيّ: أخي القارئ العزيز إنّك إذا ما قرأتَ وتمعّنتَ بما سطّره كاتبنا في هذا السفر العظيم (فقه السيرة النبوية) رأيتَ لغويًّا متميزًا، ليس مؤسَّسًا فقط؛ بل هو مُتّبِع ومستنّ بما خطّه السابقون وصاغوه من قواعد نحويّة وبلاغية، يأتي في مقدّمتها علم المعاني، لقد كان الإمام البوطي – رحمه الله– يقصد ويومئ إلى دلالات ومعان أكثر ممّا هو ملفوظ ومكتوب، يصبو إلى تفاعل من القارئ، فيريد منه أن يصل إلى الفكرة التي من ورائها كان القصد إلى التأليف في هذا المجال، مجال تأريخ السيرة النبوية؛ وصولًا إقناعيًّا مصحوبًا بإمتاع، بعيدًا عن الجفاف المنتج جفاء لدى القارئ، فأبلغ البوطيّ مُخطابّه على نحو غير مباشر بفكرته، اعتمادًا على أنّ السامع قادرٌ على أن يصل إلى مراد المتكلم (الكاتب) بما يُتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال؛ إضافة إلى مخزونه اللغويّ النحويّ النظريّ، الملقّم بالمخزون البلاغيّ؛ لأنّ الكتابة عندما تتحلّى بحلّة الأدب والبلاغة، تكتسب جمالا ظاهريًّا وضِمْنِيًّا، فالكتاب أو القصة ما هي إلا كلمات، وفقرات، ثم نصوص، فهي تخضع لاختبار مسبق، فالجمل تخضع لأسلوب ترتيبيّ تركيبي معيَّن، والفقرات تتبع ترتيبًا محدّدًا، يعطي للسياق معناه، وللنص دلالته الخاصة به، وهكذا كان نتاج البوطيّ الفكريّ في هذا الكتاب، مصبوبٌ في قالب أدبيّ وبلاغيّ ولغويّ رفيع، يقوم على أساليب معينة يستخدمها باطِّراد؛ لأنها تؤدّي غرضه من كتابته، ومنها أسلوب الشرط، الذي اتخذه البوطيّ

[1]- بلاغة الخطاب وعلم النص ص: 124.
[2]- بلاغة الخطاب وعلم النص ص: 124.

مطيّة في نصوص الكتاب، فدافع به عن كثير من القضايا، وأوصل به فكرته، وقصده.

النصّ السرديّ: إنّ النصّ وحدة متكاملة، قد يكون جملة واحدة، أو ترابط جمل مع بعضها البعض، وتناسق عبارات بأكملها؛ مكوّنة نصًّا، يؤدّي بمجموعه معنًى عامًّا، يمكن لهذا المعنى العام أن يُجزَّأ لمعرفة خصائص مجموعه الذي ينتمي إليه، فتفكيكه ضروريّ لدراسته وتحليله، إذن نحن ندرس استعمال الكاتب اللغويّ في نصه السرديّ، ومَنْ يُمثِّل الكاتب هنا هو الإمام البوطيّ. الاستعمال يجعل هذا العلم يضمّ مجموعة كبيرة وهامّة من علوم اللغة العربيّة؛ كعلم البلاغة والنحو والصرف والأدب وعلوم أخرى ليست من فروع العربية، ولكنها وثيقة الصلة بها كعلم التربية وعلم النفس وعلم اللغة الاجتماعيّ؛ لأنّ هذه العلوم تشتغل بالنصوص من أجل غايات تختلف باختلاف وجهات النظر الخاصة بالدارسين[1]. وأمّا السّرد- لغةً- فالتتابُع، ومجيء الشيء بعضه إثْر بعض في تناسُق؛ فسرد فلانٌ قصتَه: حكاها متواصلة دون انقطاع ولا تلكُّؤ، وسرد الحديث يسرده سردًا: إذا تابعه[2]، وأما النص السرديّ في الأدب فهو: «نصٌّ يقوم على التتابع المنطقيّ والتسلسل للأحداث؛ مرحلة مرحلة))[3]،وقد توسّع مفهوم السرد مما جعل منه مجالًا خِصبًا تلتقي فيه جميع الاختصاصات، وتتقاطع معه، وبخاصة مع تطوُّر البحوث البلاغية الحديثة، فهو يتقاطع مع الكثير من المجالات بشكل أو بآخر، ويتداخل معها، ومن هذه المجالات (التداوُليّة)، وذلك من خلال أنّ الخطاب السرديّ يخضع لشروط القول والتلقّي، والمقام للمقال؛ فيراعي القصديّة والتأثير في السامعين والقرّاء المتلقين، كلّ ذلك يعتبر أركانًا في العمليّة النصيّة؛ سواء أكانت سرديّة أم غيرها من النصوص، كالنص الحجاجيّ[4].

وقد رأيتُ أنّ من الملامح اللغويّة للنص السرديّ في كتاب (فقه السيرة النبوية) اطّراد أُسلوب الشرط، كعلامة مميزة وأساس فيه، والأمثلة المدلّل بها على ذلك كثيرة، فكاتبنا يرغب في إيصال فكرته إلى القارئ، وهذا لا يكون إلا باستخدام دقيق للّغة، إفرادًا وتركيبًا، وهذا المكتوب ليس كسائر المكاتيب، أو قصة كغيرها من القصص، فهو يحمل رسالة سامية مفادها أنّ سيرة النبي ﷺ عطرة، ومحصَّنة بعيدة عن كثيرٍ من الشبهات والأدران التي علقت بها وبصاحبها ﷺ؛ ولا

---

[1] - انظر: علم لغة النص ص: 94.
[2] - انظر: لسان العرب (سرد).
[3] - النص والخطاب والإجراء ص: 415.
[4] - انظر: التحليل التداوُليّ ص: 58.

تتضح هذه النكات اللغوية والنحوية والبلاغية إلا بالتحليل؛ إذ التحليل النصيّ يقدّم المادّة الخام للمناهج النقديّة المختلفة، فالقراءة والتحليل يعتبران اشتغالًا للمعنى، وكتابة وإنتاجًا للنصّ من جديد، هما إرجاع النص إلى صورته الأوليّة الخالصة من أيّة ضغوط للكاتب أو القاصّ، وتعتبر تحريرًا للقارئ أيضًا.

أسلوب الشرط: أو الجملة الشرطية، وهي من أقسام الجملة الفعليّة المركّبة، وليست قِسْمًا مُستقِلًّا، كالجمل الاسميّة، أو الفعليّة، وإن عدّها بعضُهم جملةً مستقلّة منفردة، مختلفة عن بقيّة الجمل الأخرى[1]، قال ابن هشام: ((انقسام الْجُمْلَة إلى اسميّة وفعليّة وظرفيّة: فالاسميّة هِيَ الَّتِي صدرها اسْم...والفعليّة هِيَ الَّتِي صدرها فعل...والظرفيّة هِيَ المصدَّرة بظرف أَو مجرور...وَزَاد الزَّمَخْشَرِيّ وَغَيره الْجُمْلَة الشّرطِيَّة، وَالصَّوَاب أَنَّهَا من قبيل الفعلية)) [2]. إنّ أحكام الشرط متنوِّعة ومختلفة، وأدواتُه كثيرةٌ، قال المبرِّد: ((وَهِي تدخل للشّرط، وَمعنى الشَّرْط وُقُوع الشَّيْء لوُقُوع غَيره؛ فَمن عواملها من الظروف أَيْن وَمَتى وأَنَّى وحيثما، وَمن الْأَسْمَاء منْ وَمَا وَأي وَمهما، وَمن الْحُرُوف الَّتِي جَاءَت لِمَعْنى إنْ وإذما، وَإِنَّمَا اشتركت فِيهَا الْحُرُوف والظروف والأسماء؛ لاشتمال هَذَا الْمَعْنى على جَمِيعهَا)) [3]. واعلم أنّ جميع الأدوات مع اختلاف وظائفها تدخل على الجمل فقط، آخذة منها شرطًا وجزاءً، فمنها ما يجزم الجزأيْن، ومنها ما لا يجزم البتّة، وأسلوب أو الجملة الشرطية مكوّنة من ركنيْن أساسيْن: الأوّل الشرط، أو جملة الشرط، وهي لا تكون إلا فعليّة، والركن الثاني يُسمّى جملة الجزاء، أو جواب الشرط؛ وتأتي فعليّة، أو اسميّة، ولا معنى للجملة الشرطيّة، ولا دلالة لها دون جملتيْها، وما جاء مُوهمًا أنّ الجملة الشرطيّة مكوّنة من جملة واحدة؛ فالأمر على خلافه؛ بمعنى أنّ إحدى الجملتيْن محذوفة اختصارًا وإيجازًا؛ لوجود ما يدُلّ على المحذوف، وخوفًا من التّكرار وتوطئة لما سيأتي من حذفٍ مطَّردٍ للجواب والجزاء في كثيرٍ من النصوص والتراكيب النثريّة في كتاب (فقه السيرة النبويّة)، أقول: يُستغنَى عن بعض أركان الشرط كالجواب؛ متى دلّ دليلٌ على هذا الحذف؛ فإن وجدنا قبل الأداة الشرطيّة وفعلها ما يُوقع في لبس، إلى درجة اليقين والجزم بأنه هو الجواب والجزاء، حكمنا على هذا المتقدّم بأنه الرخصة

[1]- انظر: مغني اللبيب بحاشية الأمير 43/2.
[2]- مغني اللبيب ص: 492.
[3]- المقتضب 2/ 46.

والإجازة التي أباحتْ حذف الجزاء، وليس جزاءً ولا جوابًا؛ لما تقدّم وتقرّر من اتّفاق جمهور النُّحاة؛ على أنّ الجزاء لا يتقدّم على الشرط؛ فيجوز حذف جواب الشرط، كما يجوز حذف الشرط نفسه؛ إذا دلّ على ذلك دليلٌ لفظيّ، أو معنويّ، فالدليل اللفظيّ كأن يكون هناك ذكر للجواب في جملة شرط سابقة؛ تحتوي على نفس المعنى، وتأخذ نفس الحكم؛ أو يذكر الجواب بمعناه متقدِّما على شرطه، وقد يكون بلفظه، فيحذف جزاء الشرط؛ لدلالة ما ذكر عليه. تقول: إذا أتاك محمد فأكرمه، وإذا أتاك أبوه. والتقدير: وإذا أتاك أبوه فأكرمه أيضًا، ومن أمثلة ما قد يتقدّم على الأداة والشرط ما يفيد الجواب؛ فتقدّر الجواب من ذلك المتقدِّم؛ ما جاء من تعليق البوطي على رحلة النبي ﷺ إلى الشام، وكدحه في سبيل تحصيل رزقه، يقول: ((إنّ صاحب أيّ دعوة لن تقوم لدعوته أيّ قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم))[1]. وما علّل به النحاة من عدم جواز تقديم الجواب على فعل الشرط وأداته؛ أنّ أدوات الشرط لها صدارة الجملة، كأسماء الاستفهام، وقد ورد حذف الجزاء كثيرًا في آيات القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سُلّمًا في السماء فتأتيهم بآية﴾ [الأنعام: 35]. يقول ابن مالك (ت 672 هـ) في ألفيته:

والشرط يغني عن جواب قد علم

والعكس قد يأتي إن المعنى فهم

أي: تحذف جملة جواب الشرط، ويغني عنها شرطها، إن دلّ دليلٌ على المحذوف، وكذا تحذف جملة الشرط، ويغني عنها جوابها، إن دلّ دليلٌ على ذلك[2]. وسنرى أنّ أسلوب الشرط أسلوب لغويّ نحويّ له تداولٌ مطّرد مرتبط بالسياق في نصوص كتاب (فقه السيرة النبوية)، كما له تأثيرٌ جليّ في تأسيس النص السردي؛ لذا كان موضع اختياري من بين بقية الأساليب والتراكيب النحويّة الأخرى.

الإجراء والتطبيق: يجب الخروجُ من نحو الجملة النظريّة التقعيديّة إلى نحو النصّ التطبيقيّ السياقيّ الاستعماليّ، وهنا أنبّه إلى أنّ المتتبع لمخرجاتنا العلميّة المكتوبة المتمثّلة في بحوث التخرُّج ورسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه والبحوث المنشورة؛ يلحظ العزوف البيّن في اقتحام منهج

[1]- فقه السيرة ص: 78.
[2]- انظر: شرح ابن عقيل 348/1، التصريح 2/ 252.

تحليل النص الأدبي شعرًا أم نثرًا، بجميع صوره، والخوض في هذا المجال لم يُطرَق إلا متأخِّرًا، ولهذا ما يبرره، فهو علم تأطيره ومنهجيّته قام بها علماء الغرب؛ مستشرقون، وغيرهم من القارِّين في بلاد الغرب، ناهيك أنّ هناك تحفُّظًا حول تحليل بعض النصوص بالنظر إلى زمن النصوص، وقائليها، واتجاهاتهم، وعقيدتهم، ومنهجهم، ولعلّ هذا أحد أسباب عزوف البُحّاث وتأخُّرهم في ولوج الجانب التحليليّ والتطبيقيّ؛ فالملاحظ أنّ: «اللسانيّات تأخّرت في الشروع في تحليل ما يطلق عليه إميل بانفنيست اسم الذاتية في اللغة؛ أي الانتقال من تحليل المقولات إلى تحليل العلاقات بين هذه المقولات، والأطراف المنتجة لها، وهي ما نسمّيه - حاليًّا- عملية القول)[1]، وهذا التحليل للمقول له فائدة لغويّة توقفنا على الجمال اللغويّ بما فيه من جمال بلاغيّ، وقد يرد سؤالٌ: لم الإجراء والتطبيق على مثل هذه النصوص النثرية الحديثة؟ وما جدوى ذلك؟. قلتُ: الشعر بُحِث، ومازال عليه وبه تقوم الدراسات اللغويّة، والنثر التراثيّ لقي عناية كبيرة قاربت عناية اللغويين بالشعر، وأمّا المادّة النثريّة الحديثة والمعاصرة فالإقبال عليها يلفّه الخجل العلميّ، والخوف من أنّ المادة قد لا ترقى لأن تكون محلّ استقراء وتحليل، ولقد كان من أهمّ أهداف الإجراء والتطبيق على النصوص الاتصال النصيّ، الذي هو: ((تبادل كلاميّ بين المتكلم الذي ينتج ملفوظًا أو قولًا موجَّهًا نحو مُتكلِّم إلى آخر))[2]، كما يهتمّ بدراسة سياق الموقف والثقافة، وملاحظة ظروف إنتاج الكتاب نصَّه؛ لفهم النص فهمًا مناسبًا، وهذا النص هو حصيلة الكفاءة اللغويّة لمؤلف بعينه، وقد عني علم اللغة النصيّ بتوصيف النّص من الناحية الاتِّصالية، وفي (فقه السيرة النبوية) - مجال البحث- نجد البوطي لا يخاطب مرسلًا بعينه، بل هو ينقل رسالته إلى مستقبلين نقلًا مباشرًا وغير مباشر، وسنلحظ أنّ اتصاله وُجّه إلى غير معروفين للمؤلف، كما سنجد أنّ هذا النصّ الذي أنتجه المؤلف لم يكن اعتباطيًّا؛ بل له قصد يرتبط بالمخاطب؛ أي الطرف المستقبل، لا بوصفه طرفًا منتجًا أساسيًّا، بل مراعى في العملية التواصلية؛ لأننا إذ نتكلّم لا ننظر إلى الآخرين باعتبارهم طرفًا مستهلكًا، مفعولًا سلبيًّا؛ بل طرفًا فاعلًا، وبهذه القراءة والتطبيق على نصوص الكتاب نجد أنّ التداوليّة فيه متناوَلة بمفاهيمها المتعدّدة، التي من أهمها وأساسها السياق، وهو الذي سنركِّز عليه في دراستنا التطبيقيّة، كما أنّ غرض المتكلم، وإفادة السامع، ومراعاة العلاقة بين أطراف الخطاب،

[1]- مبادئ تحليل النصّ الأدبيّ ص: 242.
[2]- اللغة والتواصل ص: 78.

محلّ اهتمام، فنحن فيما سنقوم به لا بُدّ من ملاحظة محور التواصل الذي يقوم به المرسِل، وهو الإمام البوطيّ في هذا المقام، والمرسَل إليه، وهو المتلقي، أيًّا كان، ونحن من هذا المتلقّي. لقد تبادلنا في تحليلنا مع الكاتب بيانات أو معلومات وقصصًا وحكايات سردها علينا؛ فالبوطي أحاطنا علمًا بفكرةٍ ما، وهو ما جعلنا نرى بُعْدًا تواصُليّا فيما يقوله البوطيّ في هذا الكتاب، ولا ننسى أنّ في فحوى هذه النصوص معلومات وأفكارًا، تمثل عملية معرفية غُلِّفتْ في خطاب سرديّ، كان من وسائله التي ركّزنا عليها هنا أسلوب الشرط، وقد أعقب الإرسال والتواصل القبول والاقتناع بما في فحوى تلك النصوص من أفكار، وإضافة إلى ما ذكر يجب التأكيد على ارتباط المتكلّم بالسياق الخارجيّ؛ ارتباطًا وثيقًا مؤثّرًا في تحديد المعنى الذي يَقصِدُه الإمام البوطيّ[1]. وقد رأيت أنّ من الملامح اللغويّة للنص السرديّ في كتاب (فقه السيرة النبوية) اطِّراد أُسلوب الشرط، كعلامة مميزة وأساس فيها، والأمثلة المدلّل بها على ذلك كثيرة، فكاتبنا يرغب في إيصال فكرته إلى القارئ، وهذا لا يكون إلا باستخدام دقيق للّغة، إفرادًا وتركيبًا، وهذا المكتوب ليس كسائر المكاتيب، أو قصة كغيرها من القصص، فهو يحمل رسالة سامية مفادها أنّ سيرة النبي ﷺ عطرة، ومحصَّنة وبعيدة عن كثيرٍ من الشبهات والأدران التي علقت بها وبصاحبها ﷺ؛ ولا تتضح هذه النكات اللغوية والنحوية والبلاغية إلا بالتحليل؛ إذ التحليل النصيّ يقدّم المادّة الخام للمناهج النقديّة المختلفة، فالقراءة والتحليل يعتبران اشتغالًا للمعنى، وكتابة وإنتاجًا للنصّ من جديد، هما إرجاع النص إلى صورته الأوليّة الخالصة من أيّة ضغوط للكاتب أو القاصّ، وتعتبر تحريرًا للقارئ أيضًا. أقول إنّ منتجي النص السردي - من وجهة نظري واجتهادي واستنتاجي- يرون: «أنّ الأسلوب قوة ضاغطة تتسلّط على حساسية القارئ بواسطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها؛ بحيث إن غفل عنها تشوّه النصّ، وإذا حلّلها وجد لها دلالات تتميّز به، خاصة بما يسمح بتقرير أنّ الكلام يعبِّر، والأسلوب يبرز، وهكذا فالمهم في الدراسة الأسلوبية هو ملاحظة ما يتولّد عن الرسالة أو النصّ من ردود فعل لدى القارئ المتلقّي))[2]. وابتعادًا وخوفًا من التكرار المعقب الإطالة ثم السآمة؛ فإنّ أحكام الشرط وأدواته سأوردها حسب ما جاء منها في النصوص المختارة، ومن أدوات الشّرط التي صُدِّرتْ بها الجمل الشرطيّة:

[1]- بلاغة الخطاب وعلم النص ص: 408.
[2]- الأسلوبية للدكتور أبو العدوس ص: 37.

1- **إذا:** اسم شرط غير جازم، وهي أُمّ الأدوات الشرطيّة غير الجازمة، وإن ورد الجزم بها فهو على الشذوذ، أو خاصّ بالنظم؛ فلا ينقاس، وهي لا تدخل إلا على الجمل الفعلية؛ أي جملة الشرط لا تكون إلا فعلًا، والأغلب فيه أن يكون ماضيًا، وقد يأتي مضارعا، وهذا الفعل – أعني فعل الشرط- محلُّه الإعرابيّ الجرّ بها، وأمّا (إذا) فهي منصوبة بالجواب الذي قد يتصل بالفاء أو بـ(إذا) الفجائية؛ إذا لم يصلح هذا الجزاء لأن يكون شرطًا، كأن يكون فعلًا مضارعًا منفيًّا بغير (ما) و(لا) [1].

أمّا معانيها فمنها: الظرفيّة في الزمن المستقبل، والدّلالة على تعلُّق الجواب بالجزاء، معناه وُقُوع الشَّيْء لوُقُوع غَيره، كما أنّ مدخولها وجملتيها عامّة تصبح في حكم المتيقّن حصوله والمجزوم به؛ فجعل ذلك من وظائفها المعنوية وتداولياتها، وقد تأتي وتدخل على التركيب فيكون الأمر مظنونا ومشكوكًا في حصوله [2].

ولنقف على الأمثلة الدالّة والمطبّقة على ما قيل من قواعد نظريّة؛ فمن مواطن الاستشهاد لوظيفة (إذا) ودلالتها على الشرط وتعلُّقه بالجزاء ما جاء في العبر والعظات جرّاء قرار هدم مسجد الضِّرار، عقب رجوع النبيّ ﷺ من غزوة تبوك: ((إنّك إذا تأمّلت في خطوات هذا الكيد المتلصّص من المنافقين، وكيفيّته، ووسائله؛ علمتَ أنّ طبيعة النفاق واحدة في كلّ عصر وزمان، وأنّ وسيلة المنافقين لا تتبدّل، ولا تختلف...إلى أن يقول: حتّى إذا انفتلوا إلى بني قومهم من المسلمين المؤمنين؛ تظاهروا بالإسلام، واصطنعوا مظهر الإعجاب به، والدعوة إليه، فإذا أمكنتهم الفرصة من خنق حقيقة من حقائق هذا الدين، والقضاء على بعض دعاته؛ أعلنوا أنهم يقومون برسالة تطويره)) [3].

ففعل الشرط ماض ودلالته نقلت إلى المستقبل بواسطة (إذا)، فتأملك في سلوكهم وكيدهم واقع مستقبلًا لا ماضيًا، كذا في التركيب الثاني، وهو رجوعهم إلى قومهم، يقع بعد حين، فلها فضل وظيفيّ وآخر دلاليّ تداوليّ، في التراكيب السالفة الذكر، فدخول إذا على الماضي مظهر تداوُليّ لها، كما أن دلالة (إذا) في النص السابق متنوعة، فدخلت في آخر النص على أمر مظنون فيه، ومشكوك في حصوله؛ ألا وهو إمكانية خنق حقيقة من حقائق هذا الدين، فقال: فإذا أمكنتهم الفرصة...وهو أمر غير محقق، على عكس قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1].

---

[1]- انظر: شرح التسهيل لابن مالك 4/ 81.
[2]- انظر: المقتضب 2/ 46، النحو الوافي 4/ 431.
[3]- فقه السيرة ص: 458.

وزيادة على دلالة الاستقبال لـ(إذا) الشرطية فلها دلالات هامشيّة يجب أن توضع في الذهن عند القراءة والتحليل، فهي: ((إذا كانت للشرطيّة؛ فإنها لا تدُلّ على التكرار؛ في مثل: إذا خرجتَ أخرج معك، يتحقّق المراد بالخروج مرة واحدة، وهي أيضًا لا تفيد الشمول والتعميم في الرأي الشائع، فلو حلف رجلٌ على أن يتصدّق بمائة - مثلًا- إذا رجع ابنٌ من أبنائه الغائبين؛ فرجع ثلاثة، لم يجب عليه إلا مائة، وتسقط عنه اليمين بعدها))[1].

ومن ورود الجزاء جملة اسميّة فاقترنت بالفاء قوله: ((ومعنى هذا أنّه إذا اختلفت الأحوال وقامت عثرات الصدّ والعناد دون سبيل الدعوة، فإنّ الحكمة حينئذٍ إنما هي إعداد العدّة للجهاد والتضحية بالنفس والمال)) [2]. حيث كان الشرط بـ(إذا)، الداخلة على الفعل الماضي لفظًا، والجزاء كان جملة اسمية؛ فصُدِّرتْ بالفاء، التي دلّت هنا على الربط وإتباع الجزاء للشرط، وتعلّقه به دون مهلة ولا قطع، ولا فاصل كثير، قال ابن جنيّ: ((ومن ذلك فاء العطف فيها معنيان: العطف، فإذا استعملت في جواب الشرط خلعت عنها دلالة العطف وخلصت للإتباع، وذلك قولك: إن تقم فأنا أقوم، ونحو ذلك)) [3]، ومدخول (إذا) هنا غير مقطوع الوقوع، وقطعه يكون بدخول (إذا) وما أحدثته من دلالة.

وقد تحمل (إذا) تداولًا غير الاستقبال الموجود في الشرط؛ فتدلّ على الزمن، وتكون اسم زمان بعيدًا عن الشرط والجزاء، ومن هذا التركيب قول الإمام البوطي: ((والحقيقة أنّ الاهتمام بهذه المدرسة في كتابة السّيرة وفهمها، والحماسة التي ظهرت يوما ما لدى البعض في الأخذ بها- إنما كان منعطفًا تاريخيًّا ومرّ... وعذر أولئك الذين كتب عليهم أن يمرّوا بذلك المنعطف أو يمرّ هو بهم، أنهم كانوا- كما قلنا- يفتحون أعينهم إذ ذاك على خبر النهضة العلميّة في أوربا، بعد طول غفلة وإغماض، وإنه لأمر طبيعيّ أن تنبهر العين عند أوّل لقياها مع الضياء، فلا تتبين حقائق الأشياء، ولا تتميّز الأشباه عن بعضها، حتى إذا مرّ وقت، واستراحت العين إلى الضياء، أخذت الأشياء تتمايز، وبدت الحقائق واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض)) [4]، وأيضًا قوله في موضع آخر: ((أقول إنّ المنطق يقضي بأن ندرس ذلك كلّه، ولكن على أن نتّخذ منه سُلّما للوصول إلى نهاية من البحث والدرس، نتّأكد فيها من نُبُوّته، ونتبين فيها حقيقة الوحي في حياته، حتى إذا تجلّى

---

[1]- النحو الوافي 2/ 279.
[2]- فقه السيرة ص: 128.
[3]- الخصائص 2/ 196.
[4]- فقه السيرة ص: 36، 37.

لنا ذلك بعد البحث الموضوعي المتجرّد عن أيّ هوى أو عصبية، أدركنا أنه ﷺ لم يخترع لنا من عنده شِرْعة وأحكامًا))[1]، ولكن غياب الشرط في هذا النصّ عنها أراه مستبْعَدًا؛ خلافًا لما ذكره الأخفش في تفسير قول الحقّ ﷻ: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنّم زُمرًا حتى إذا جاءوها فتِّحت أبوابها﴾[الزمر: 71]. وأيضًا ما جاء عن بعضهم من أنّها تجرّدت وتمحّضت للزمن؛ فتكون مُجَرَّدة من الشَّرْط، كما في قَوْله تَعَالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: 1] [2].

وقد يحذف جواب (إذا) إذا دلّ عليه دليلٌ، كقول البوطيّ: ((يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضرّ بها، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهرُ بها، وكان ذلك مفيدًا، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربّصين بها إذا توفرت أسباب القوّة والدفاع عنها، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عقر دورهم إذا ما توفرت وسائل ذلك وأسبابه)) [3]. وما سوّغ حذفه هو الدليل اللفظيّ؛ حيث تقدّم ما يُومئ إلى الجزاء، وهو: ((يجب المسالمة، لا يجوز الإسرار، لا يجوز المسالة، لا يجوز القعود))، وهذا تداول آخر لـ(إذا) وهو يحمل وراءه الإيجاز بالحذف.

وإحاطة وإتيانًا وإلمامًا بجميع دلالات (إذا) أقول أنها تدخل على محقق الوقوع لتدلّ على التعلق بين الشرط وجزائه، ((فكان هؤلاء يلتقون بالنّبي ﷺ سرّا، وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مَكة يستخفي فيها عن أنظار قريش)) [4]. فدخول (إذا) هنا على نية أصحابه رضوان الله عليهم عبادة ربهم عبادة لا تضرّ بأمر المحافظة على سرّ دعوة نبيّهم ﷺ، وكذا في قوله: ((وإذا أمعنّا في منبع هذه النظرية عن رسول الله ﷺ نجد أنها في الأصل فكرة بعض المستشرقين والباحثين الأجانب من أمثال غوستاف لوبون، وأوجست كونت، وهيوم، وجولد زيهر، وغيرهم، وأساس هذه النظريّة عندهم وسببها؛ هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أوّلًا؛ ذلك لأنّ الإيمان بالله ﷻ إذا استقرّ في النفس سَهُل الإيمان بكلّ شيء بعد ذلك، ولم يبقَ شيءٌ في الدنيا يستحقّ أن يُسمّى في الحقيقة معجزة))[5]، فهنا تَدُلّ (إذا) على تعلُّق الجواب والجزاء وارتباطه بفعل الشرط في وقت وزمن، بواسطتها هي، قال الأستاذ عباس حسن: ((كما تستعمل (إذا) الظرفيّة

---

[1]- فقه السيرة ص: 41.
[2]- انظر: العدّة في إعراب العمدة 1/ 59.
[3]- فقه السيرة ص: 108.
[4]- فقه السيرة ص: 106.
[5]- فقه السيرة ص: 162.

الشرطيّة في التعليق إذا كان الشرط محقّقَ الوقوع، نحو: إذا أقبل الشتاء أقيم عندكم))[1]. ويبقى لـ(إذا) تداول في تسليط الفعل الإنجازيّ الإمعان، وتحميله إذا مع مدخولها تداولًا استعماليًّا تهكُّميًّا فيه سخرية، وهو مظهر تداولي آخر لها.

أمّا: حرف شرط وتفصيل؛ أدّت دوْرَيْن في الجملة الشرطيّة عامّة: دور الأداة، فهي حرف غير جازم يستدعي جملتيْن؛ الشرط والجزاء، وتقوم (أمّا) بمهمة دور جملة الشرط أيضًا؛ إذ تقديرها: مهما يكن من شيء فـ...، ولا بدّ لجزائها من أن يتّصل بفاء الجزاء؛ سواء أكان فعلًا أم اسمًا، وهذه الفاء تتّصل بصدر الجملة الواقعة جزاءً، لا عجزها، وإذا تتبّعت النصوص وجدْتَ الفاء الرابطة للجزاء مع الشرط موجودة، ولعدم صحة وقوع الجملة الاسمية شرطًا فقد دخلت عليها الفاء، وكذلك الفاء تدخل في جزائها عامّة، فما بالك إذا كان هذا الجزاء جملة اسميّة، والفاء متّصلة في هذه الجمل بالخبر، وليس بالمبتدأ، وإن كان ظاهرها يوحي بأنها متصلة بالمبتدأ، ولكنها متصلة بالخبر؛ إذ مبتدؤها محذوف، ويمكن تقديره من السياق؛ كلّ مثال على حدة، فلما حذف المبتدأ، وبَعُدت المسافة بين الشرط (أمّا)، والجزاء بهذا المحذوف؛ فقد اتصل بالخبر، ولم يستقبح هذا الاتصال؛ لبعدهما عن بعضهما؛ أعني الشرط وصدر الجزاء، وفي جمل أخرى غير هذا الموضع تجد أنّ الفاء لا تدخل على المبتدأ؛ الذي هو صدر الجزاء، وإنما على خبره، والمبتدأ مذكور، كما جاء في قول البوطي في مقدمة كتابه: ((**أمّا** عمليّة استنباط النتائج والأحكام والمبادئ والمعاني من هذه الأخبار (بعد القبول التامّ لها) فعمل علميّ آخر، لا شأنَ له بالتاريخ)) [2]، فـ(عملية) مبتدأ، و(عملٌ) خبره، والأولى أن يكون التركيب هكذا: أمّا فعملية استنباط النتائج عملٌ علميّ، ولكنَّ العرب استقبحوا ذلك، وساروا مع (أمَّا) في اتصال جزائها بالفاء سيرة مغايرة لأخواتها، ولهذا التأخير سببٌ، ليس من ناحية القواعد النحويّة، وإنما من الناحية الظاهرية الشكلية؛ حتى يعلم من يظنّ أنّ العربيّة لا تهتمّ بمظهرها الخارجي؛ أنّ الأمر على خلاف ما اعتقده؛ فالمظهر الخارجيّ في تنسيق الجمل والتراكيب أعاره العرب اهتمامهم؛ ((فِرارًا من قبحه – أي اتصال الفاء مع صدر الجملة الجزائية – لكونه في صورة معطوف بلا معطوف عليه؛ ففصلوا بين (أمّا) والفاء بجزء من الجواب)) [3]. وهو المبتدأ (عملية استنباط) في المثال النصي السابق.

---

[1]- النحو الوافي 2/ 279.
[2]- فقه السيرة النبوية ص: 29.
[3]- التصريح 2 / 262. وانظر حكم (أمّا) في المصدر نفسه 260/2 - 262.

تداولية أمّا: استعمالها باطّراد أكثر من غيرها مظهر تداوُليّ، إنّ صدارة أداة الشّرط (أمّا) فيه تفصيل، وفيه رائحة التوكيد أيضًا، ولنتأمّل هذه الجمل، ونستمع إلى كلام الإمام البوطيّ تطبيقًا لما ذكر من قواعد نظريّة، قال البوطيّ: ((**أمّا** كتابة حياة رسول الله ﷺ ومغازيه بصورة عامّة، فقد جاء ذلك متأخّرًا عن البَدْء بكتابة السُّنّة، وإن كان الصحابة يهتمّون بنقل سيرته ومغازيه شفاها))[1]، وفي موضع آخر من الكتاب يقول: ((الرواة الذين اهتموا بسيرة النبي ﷺ وحياته عمومًا، وقد كان في الصحابة الكثير ممن اهتمّ بذلك، بل ما من صحابي كان مع رسول الله ﷺ في مشهد من مشاهد سيرته إلا ورواه لسائر الصحابة ولمن بعده أكثر من مرة، ولكن دون أن يهتمّ واحدٌ منهم في بادئ الأمر بجمع هذه السيرة وتدوينها، وأُحبّ أن ألفت النظر هنا إلى الفرق بين عموم ما يُسمّى كتابة وتقييدًا، وخصوصًا ما يُسمّى تأليفًا أو تدوينًا، **أمّا** الأول فقد كان موجودًا بالنسبة للسنة في حياة رسول الله ﷺ كما ذكرنا آنِفًا، و**أمّا** الثاني - ويراد به الجمع والتنسيق بين دفتين- فقد ظهر فيما بعد، عندما ظهرت الحاجة إلى ذلك))[2]. إذا قرأتَ ووقفتَ على النصّ علمتَ أنّ ذلك موجود ثابت؛ فهو أمرٌ محتّم، حقٌّ لا شكّ فيه، وأنّه حاصلٌ يقينًا، وهو ((كان موجودًا بالنسبة للسنة...فقد ظهر))، وإذا قرأت وتأمّلت بقية جمل ونصوص الكتاب المستشهد بها أحسستَ بما قلتُه ووقفت عليه، وأريت أنه يحمل توكيدًا بين طيّاته. يقول الزمخشريّ (ت 538 هـ) في صورة من صور تداولية (أمّا) وهي التوكيد في الآية الكريمة: ﴿فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحقّ من رَّبِّهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا﴾[البقرة: 26]: ((وأمّا حرفٌ فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء، وفائدتُه في الكلام أن يُعطيه فضل توكيد، تقول: زيدٌ ذاهب، فإذا قصدتَ توكيد ذاك، وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلت: أمّا زيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيدٌ ذاهب، وهذا التفسير ما دلّ لفائدتيْن: بيان كونه توكيدًا، وأنه في معنى الشرط، ففي إيراد الجملتين مصدرتين به، وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون، إحماد عظيمٌ لأمر المؤمنين، واعتدادٌ بعلمهم أنه الحقّ، ونَعْي على الكافرين إغفالهم حظّهم، وعنادهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء))[3].

وتلحظ أنّ استعمال (أمّا) مقارنة بغيرها من الأدوات شائع الاستعمال في نصوص الكتاب،

---

[1]- فقه السيرة النبوية ص: 26.
[2]- فقه السيرة ص: 27، 28.
[3]- تفسير الكشاف 1/ 117.

خاصة في مواطن التفصيل والتحليل لكثير من النصوص المجملة والحوادث الجليلة التي أجملت في كثير من مصادر التأريخ الإسلاميّ، من ذلك ما جاء في تعليل البوطيّ لسبب وعلة اختيار الجزيرة العربية والقومية العربية لأن تكونا محلّ وأهل هذا الدين ؛ حيث قال : ((**أمّا** فارس فقد كانت حَقْلًا لوساوس دينيّة فلسفيّة متصارعة مختلفة، كان فيها الزرادشتيّة التي اعتنقها ذوو السلطة الحاكمون، و**أمّا** الرومان، فقد كانت تسيطر عليها الروح الاستعمارية، وكانت منهمكة في خلاف ديني بينها من جهة وبين نصارى الشام ومصر من جهة أخرى، وكانت تعتمد على قوتها...**أمّا** اليونان فقد كانت غارقةً في هوسات من خرافاتها وأساطيرها الكلاميّة التي مُنِيتْ بها دون أن ترقى منها إلى ثمرة أو نتيجة مفيدة، و**أمّا** الهند، فقد كانت - كما قال عنها الأستاذ أبو الحسن الندويّ- : إنه قد اتفقت كلمة المؤلِّفين في تاريخها أنَّ أَحَطّ أدوارها ديانةً وخُلُقًا واجتماعًا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهلّ القرن السادس عشر الميلاديّ، فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهْوُر الأخلاقيّ والاجتماعيّ))[1].

وعندما كان الأمرُ متعلّقًا بسبب رئيس من أسباب تأليفه هذا الكتاب، وهو الردّ على المتطاولين عن صاحب السيرةﷺ، الباحثين عن الثغرات، اللاهثين وراء السّراب، يقول البوطي لهم ؛ فيفصِّل حالهم، ويشرح طريقتهم في التناول والكتابة : ((**أمّا** الذين لا يزالون يعيشون في فترة البحث والتنقيب، لا ينكرون جهلهم، ولا يدّعون ما لم يؤتوه من مدنية وعلم وحضارة، فهم أطوع للعلاج والتوجيه- نقول ليست هذه هي الحكمة ؛ لأنّ مثل هذا التحليل يصدق بالنسبة لمن كانت قدرته محدودة، وطاقته مخلوقة ؛ فهو يفرِّق بين ما هو سهل وصعب عليه، فيفضل الأوّل، ويتهرّب من الثاني ؛ طَمَعًا في الراحة، وكراهيَةً للنَّصَب)) ثم إلى أن يصل تصوير صلة هذا الدين بما قبله من الشرائع فيقول : ((**أمّا** دعوته ﷺ وعلاقتها بدعوات الأنبياء السابقين ؛ فقائمة على أساس التأكيد والتتميم)) ثم[2].

ولعلّ من أجلّ مواطن التفصيل في سيرة النبي ﷺ هو نسبه وحياته الاجتماعيّة التي هي من أكثر المواضع والمواطن التي يطعن فيها وبها أهل الكفر والإلحاد المتنطّعين، ومن كان نصيرًا لهم، فيقول - رحمه الله- في ذلك : ((**أمّا** نسبه ﷺ فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ويُدْعى

[1]- فقه السيرة ص: 44، 45.
[2]- فقه السيرة ص: 47، 48.
[3]- فقه السيرة ص: 51.

شيبة الحمد، ابن هاشم بن عبد مناف واسمه المغيرة، ابن قصيّ ويُسمّى زيدًا...فهذا القدر المتفق عليه من نسبه الشريف ﷺ **أمّا** ما فوق ذلك فمختلف فيه، لا يعتمد عليه في شيء))[1]. إنّ من مواطن الطعن والهمز في النسب الشريف البحث فيما بعد عدنان، وهو من الأمور المنهيّ عن الخوض والبحث فيها؛ لذا كان من الواجب على الكاتب أن يؤكد على هذا الأمر فقال: ((أمّا ما فوق ذلك فمختلفٌ فيه)). وهنا نلحظ استعمال (أما) والتي نعتبرها مع أخواتها حروف معانٍ لها دلالات أصيلة ومطّردة، ولها دلالات فرعيّة أو هامشية(تداوليات لها)، هي محلّ البحث والتحليل، وهي مدار الاستعمال اللغوي لها، وتؤدي لنا مقاصد ومعاني من خلال إدراجها في النص النثري مع تراكيب صالحة للدخول عليها، فتصبح لـ(أما) ميزة عن بقية الأدوات والروابط واللواصق الموجودة في النص، أصبحت لها وظيفة ليست لغوية فحسب بل وظيفة كبرى فاقت المنظور اللغوي، وتعدّته إلى العالم الخارجي الاجتماعيّ، رمت (أمّا) أو لنقل: رمى الكاتب إلى: ((إنجازات وأغراض تواصلية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو مؤسساتية أو فردية بالكلمات والتأثير في المخاطب بحمله على))[2] تنزيه نسب هذا النبيﷺ الطاهر الأب والأم، والاكتفاء بالنسب القريب، والابتعاد عن الخوض فيما بعد الجدّ عدنان.

وقد لاحظت أن استعمال (أمّا) في نصوص الكتاب يبعد من الإحصاء، فلو تتبعت وكانت الدراسية إحصائية فقط لكفت وحدها مادّة علميّة لغويّة؛ ليقوم عليها بحث، ولتجاوزت صفحات البحث العدد المسموح به في أغلب المجلات.

كما أنّ لـ(أما) تداول سياقيّ مختلف عما سبق ذكره، هو التعليل، وهو ما أرجّحه في هذا التركيب الآتي المتعلق بالوحْيّ إلى نبيِّنا ﷺ؛ مع ثبات دلالة التفصيل أيضًا، حيث قال البوطيّ: ((**أمّا** انقطاع الوحي بعد ذلك، وتلبّثه ستة أشهر أو أكثر، على الخلاف المعروف فيه، فينطوي على مثل المعجزة الإلهيّة الرائعة؛ إذ في ذلك أبلغ الرّد على ما يفسر به محترفو الغزو الفكري الوحي النّبوي من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمُّل والتكرار، وأنه أمر داخلي منبعث من ذاته نفسها))[3]، كما أنّ (أمّا) قد يكون أسلوبها الشرطيّ مجازيًّا، وهي ما يعطي التركيب قوة توكيدية تزيد على دلالة التفصيل الحقيقيّ، حيث استعملت اكتسبت وألبست تداولا جديدًا، قال

---

[1]- فقه السيرة ص: 69.
[2]- التداولية عند العلماء العرب ص: 11.
[3]- فقه السيرة ص: 100.

الإمام البوطيّ: «أمّا الاستغراق في التضرُّع والدعاء وبسط الكفّ إلى السماء، فتلك هي وظيفة العبودية التي خُلِق من أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر في كل حال»[1].

وقد تستعمل (أمَّا) للتعريف كما في قوله: ((**أمّا** التقاليد فإنما هي تلك التيارات السلوكية التي ينجرف فيها الناس تلقائيًّا بمجرد باعث المحاكاة والتقليد لدى الإنسان)) [2]، فالشرط والتفصيل مع أدائها دلالة التعريف والماهية، وإني في ختام كلامي عن (أمّا) أكاد أجزم بأن من مراكز الضبط في النص السردي النثري اطِّراد استعمال (أمّا) وتداولها في الجمل والتراكيب.

كلّما: وهي اسم شرط غير جازم، خافضة لشرطها، والأكثر في شرطها أن يكون ماضيًا منصوبًا بجوابها، ونصبه على الظرفيّة الزمانيّة؛ **ومن معانيها الدِّلالة** على الوقت والزمن؛ و(كلّما) أيضًا تفيد معنى التكرار المحتوي والمتضمِّن دلالة التوكيد [3]، وإذا أردنا وقوفًا على هاتين الدلالتين فلنقف على المعاني اللطيفة الشريفة المستقاة من قوله تعالى: ﴿كلّما دَخَل عليها زكريّا المحراب وَجَد عندها رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37]: ((كلّما للتكرار، وفي هذا إشارة: وهو أن زكريّا عليه السّلام لم يذر تعهّدها- وإن وجد عندها رزقا- بل كل يوم وكل وقت كان يتفقد حالها لأن كرامات الأولياء ليست مما يجب أن يدوم ذلك قطعا فيجوز أن يظهر الله ذلك عليهم دائما، ويجوز ألا يظهر، فما كان زكريا عليه السّلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها، ثم كان يجدّد السؤال عنها بقوله: ﴿يا مريم أنّى لك هذا﴾[آل عمران: 37]» [4].

ومن المواضع المطّردة لدلالة (كلّما) قول البوطيّ رحمه الله: ((أنّ التاريخ الجاهليّ كان يزداد تفتُّحًا على حقائق التوحيد ونور الهداية مع امتداد الزمن وتطاوُل الدهر؛ أي أنّهم **كلّما** ابتعدوا عن عهد إبراهيم، وقامت بينه وبينهم قرونٌ أخرى، ازدادوا قُرْبًا إلى مبادئه ودعوته؛ حتى بلغ هذا القرب مداه الأخير إبّان بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام)) [5]، فدلالة (كلما) أخذت اتجاهين؛ دلالة الشرط والتفصيل، ومعنى بلاغيًّا مجازيًّا، ابتعدوا فاقتربوا، وهو استعمال تداولي لغويّ بلاغيّ لـ(كلّما)؛ فألبسها الكاتب ثوبا جماليًّا؛ ((فالبلاغة تشير إلى اللغة، وهي الوسيلة القارّة التي يعبِّر عنها الكلام؛ فاللغة بدون كلام تصبح ميتة، والكلام بدون لغة لا إنساني؛ إذ إنّ

---

[1]- فقه السيرة ص: 162.
[2]- فقه السيرة ص: 117.
[3]- انظر: المغني بحاشية الأمير 171/1.
[4]- لطائف الإشارات 1/ 239.
[5]- فقه السيرة ص: 60.

اللغـة والفـنّ والحيـاة الفرديّـة والاجتماعيّـة تقـدِّم نموذجًـا واضـحًا مـن التعـالُق الجـدليّ بـين اللغـة والكلام))[1].

وفي موضع آخر من الكتاب جاء جواب الشرط وجزاؤه ؛ حيث دخلت (كلما) على فعل ماض هو فعل الشرط وجوابها ماض أيضا : ((كان **كلّما** وقع شيء بين العرب واليهود، هدّد اليهودُ العربَ بأنّ نبيًّا قد آن أوان بعثته، وأنهم سيكونون من أتباعه، ويقتلونهم معه قتل عاد وإِرَم)) [2]. فهناك تلازم بين تهديد اليهود العربَ بحصول وقيعة بين اليهود والعرب في يثرب ؛ فدلالة التلازم دلالة مستعملة ومطردة لـ(كلما).

لم يلتزم البوطي باستعمال (كلما) استعمالا مُطّرِدًا، بل خرج بها إلى استعمال آخر، فيه تنوُّع ونيابة عن الظرفية الزمنية، فجاءت (كلّما) دالّة على الوقت، والتكرار، وأراها بعيدة عن الشرطيّة ؛ مما يجعلها تبتعد عن تعلُّق الجزاء بفعل الشرط، وذلك في قول البوطيّ : ((ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهُزْء والغمز واللمز **كلّما** مشى بينهم أو مرّ بهم في طرقاتهم أو نواديهم)) [3]، وأيضًا : ((إنّ على المسلمين أن يستبشروا بالنصر **كلّما** رأوا أنهم يتحمّلون مزيدًا من الضرّ والنّكبات)) [4]، ويجوز في النصين السابقين أن تدُلّ على التعلُّق مع الدلالة الزمنية، ويكون جزاؤها محذوفًا ؛ إيجازًا واكتفاءً بما ذكر سلفا ؛ ليدلّ عليه، وهذا ما ينقلنا إلى تداوُل آخر لـ(كلّما) ؛ حيث جاء الشرط المصدّر بـ(كُلّما)، وقد حذف منه جزاؤه في قوله : ((لقد كانت نتيجة العبوديّة والخضوع لله تعالى، عزة قَعْساء، ومجدًا شامخًا، خضع لهما جبين الدنيا بأسرها، ولقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفيْن قَبْرًا من الضيعة والهوان، أقيم لأربابهما ؛ حيث كانوا سيتساقَوْن فيه الخمر، وتعزف عليهم القيان، وتلك هي سنة الله في الكون **كلّما** تلاقت عبودية لله خالصة مع جبروت وطغيان زائفين))[5]، وأيضًا في قوله : ((لقد رأينا أنّ الوسيلة التي التجأ إليها رسول الله ﷺ وأصحابه في غزوة بدر، هي نفسها التي التجأ إليها في الخندق...إنها وسيلة التضرُّع إلى الله، والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، بل لقد كان هو العمل المتكرِّر الدائم الذي ظلّ يفزع

[1]- بلاغة الخطاب ص: 19.
[2]- فقه السيرة ص: 176.
[3]- فقه السيرة ص: 117.
[4]- فقه السيرة ص: 120.
[5]- فقه السيرة ص: 242.

إليه رسول الله ﷺ، **كلّما** لقي عدوًّا أو سار إلى جهاد))[1]، وفي هذين النصين تلحظ حذف جواب وجزاء (كلّما) ؛ لدلالة ما قبله عليه، وهي قرينة لفظية تبيح حذف الجزاء، الذي في الحقيقة ذُكِر وتقدّم على الشرط، ولولا أنّ القواعد النظرية اتفقت على ذلك لقلنا أنّ الجزاء والجواب ذكر متقدمًا على الشرط.

4- لّما: حرف شرط وتعليق ؛ إذا رَأَيْتَ لَهَا جَوَابًا، ومدخولها فعل ماض مُثْبت، أو فعلٌ مضارع منفيّ، ومن وظائفها الجرّ إذا نابت عن (حين)، وأما جوابها ففعل ماض لفظًا ومعنًى، وقد يكون جملة اسمية مصدّرة بـ(إذا) الفجائيّة، كما في قوله تعالى: ﴿فلمّا أحسُّوا بأسنا إذا هم منها يركضون﴾ [الأنبياء: 12] أو جملة اسمية مصدَّرة بالفاء، قال تعالى: ﴿فلمّا نجّاهم إلى البرّ فمنهم مُقْتصدٌ﴾ [لقمان: 32].

دلالة لّما المطردة التعليق، وإذا وليها فعلٌ ماض لفظاً ومعنى ؛ فلها نيابة وتداولٌ خرجت به عن التعليق إلى معنى الظرفية كـ(إذْ)، كما تتداول بِمَعْنى (حِين) كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: 55] ؛ أَي: حِين آسفونا، ودلالتها التالية أنها حرف وجوب لوجوب [2].

فمن الاطراد الدلالي الشرط مع الزمن بذكر ركني الشرط قول البوطي ساردًا مراحل طفولة النبي وشبابه ﷺ: ((ولما تمّ له ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة، سافر عمّه أبو طالب إلى الشام في ركب للتجارة، فأخذه معه، ولما نزل الركب بصرى مرُّوا على راهب هناك يُقال له بحيرا، وكان عليمًا بالإنجيل، خبيرًا بشؤون النصرانية، وهناك أبصر بحيرا النبيّ ﷺ، فجعل يتأمّله ويكلّمه)) [3]، وأيضا جاء ذكر الشرط مع الزمن في حديث البوطي عن أول هجرة في الإسلام فقال رحمه الله: ((ثم إنّ رسول الله ﷺ **لمّا** رأى ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يَحميَهم ويمنعهم مما هم فيه، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكا لا يظلم عنده أحدٌ»)) [4]، وأيضا قوله: ((ثمّ **لمّا** أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين- ما بين رجل وامرأة- اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم، وهو الأرقم بن أبي الأرقم ؛ ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد

[1]- فقه السيرة ص: 226.
[2]- انظر: الجنى الداني ص: 594- 597.
[3] - فقه السيرة ص: 75.
[4]- فقه السيرة ص: 137.

والتعليم))[1].

كما جاء تداولٌ لـ(لما)، فُصِلت فيه (لما) بين الشرط والجزاء بأكثر من جملة، وقد عطفت على جملة فعل الشرط أكثر من جملة، وفي هذا حذف لـ(لما) في تلك الجمل، فبدل التكرار للأداة اكتفى بذكرها في الجملة الأولى (افتتح)، فعطف عليها: (فرغ، أسلمت، بايعت) جاء هذا التداوُل لها في الفصل المتعلّق بـ(تتابع وفود العرب ودخولهم في الإسلام) يقول: ((**لـمّا** افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمتْ ثقيف، وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كلّ وجه، وإنما كانت العرب تتربّص بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش، إذ كانوا إمام الناس وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام وقادة العرب، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوّخها الإسلام؛ عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عدوانه، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجًا)) [2]. فـ(لـمّا) هنا فيها اطِّراد معنى الشرط، أو أنها في هذا النصّ حَرفٌ يقتضي وُجوباً لوجوب، ويكون لها تداوُلٌ آخر تكون قد نابت أو ماثلت معنى (لولا)، فمعرفة العرب وتيقّنهم حصل بحصول الفتح المبين؛ فتح مكة [3].

جعل المراديّ أنّ مِن دِلالتها أيضًا التعليل والسبب [4]؛ إلا أنّ هذا التداوُل بعيدٌ عن (لـمّا) في هذا نصوص الكتاب، وهو تداوُلٌ سياقيّ غير موجود فيما وقع عليه نظري.

ومن التنوُّع الدّلالي والتداوُليّ لـ(لما) حذف أحد ركني الشرط، وهو غياب جواب الشرط عنها، جاء ذلك في قول الإمام البوطيّ: ((وبعد فترة من الزمن بلغهم إسلام أهل مكة، فرجعوا لـمّا بلغهم ذلك حتّى إذا دَنَوْا من مكة بلغهم أنّ ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطلٌ))[5]. ومن التنوُّع الدلاليّ لاستعمال (لما) نيابتها عن (حين) في قول البوطيّ: ((وكان في سرح الدعاة اثنان لم يشهدا هذه الموقعة الغادرة، أحدهما عمرو بن أمية الضمري، ولم يعرف النبأ إلا فيما بعد، فأقبلا يدافعان عن إخوانهما، فقتل زميله معهم، وأفلت هو، فرجع إلى المدينة، وفي الطريق لقي رجلَيْن

---

[1]- فقه السيرة ص: 106.
[2]- فقه السيرة ص: 462.
[3]- انظر: حروف المعاني والصفات ص: 11، شرح التسهيل لابن مالك 4: 101- 103.
[4]- انظر: الجنى الداني ص: 596.
[5]- فقه السيرة ص: 140.

من المشركين ظنّهما من بني عامر، فقتلهما، ثم تبيّن **لـمّا** وصل إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر أنهما من بني كلاب، وأن النبي ﷺ كان قد أجارهما))[1].

فتداول اللغويون (لما) وجعلوها واستعملوها استعمالهم (حين) الظرفيّة، فغيّبوا عنها دلالة التعلُّق؛ تعلُّق الشرط والجزاء، من هذا التنوّع والتداوُل لها قول الإمام البوطيّ في موضع آخر: ((وربما أراد لهم الشيطان أن يتصوّروا أن النبيّ ﷺ قد أدركته محبّة قومه، وبني وطنه، فنسي في جنبهم الأنصار! فماذا قال لهم النبيّ عليه الصلاة والسلام **لـمّا** أخبر بذلك؟ إنّ الخطاب الذي ألقاه عليهم جَوابًا على هذه الوساوس؛ ليفيض بمعاني الرّقّة والذوق الرفيع، ومشاعر المحبّة الشديدة للأنصار))[2]. والتقدير: قال لهم النبي حين أخبر بذلك، ويجوز أن تكون (لما) شرطية حذف جوابها، وهذا تداوُل آخر لها قد سبق ذكره.

5- لولا: ذكرت هذا الحرف تتميمًا لذكر أنواع الشرط غير الجازمة، وللتذكير بوظيفة وفائدة حرف الشرط غير الجازم (لولا)، والسبب أنّ هذه الأداة لم يرد لها استعمال في تراكيب وجمل الكتاب، إلا في جمل معدودة لم تتجاوز جملتين، وبقية الجمل التي ورد فيها لولا فكانت موزعة بين آيات قرآنية وأحاديث نبوية، فليست من سبك ولغة الإمام البوطي. أرجع إلى (لولا) فهي حرف مختصٌّ بدخوله على الأسماء، ؛ وجواب (لولا) ماض مثبت أو منفيّ، وقد يخلو من اللام، والأكثر أن يكون مقرونًا بها، نحو: ﴿لولا أنتم لكنّا مؤمنين﴾[سبأ: 31]، ويقلّ حذف جزائها؛ لأنه صار عوضًا من الخبر، فكره حذفه[3].

وظيفتها الدلالية: إذا كانت لولا شرطية فهي تدُلّ على ربط امتناع وقوع الجزاء لوجود الشرط امتناع، أو (لما كان سيقع لانتفاء ما قبله)، والدلالة الأخرى: أن تكون حرف تحضيض، فتختصّ بالأفعال الماضية والمضارعة، نحو: ﴿فلولا تشكرون﴾[الواقعة: 70]، و: ﴿فلولا نَفَر من كلّ فِرقةٍ مِّنهم طائفة﴾[التوبة: 122]، كما أنها تدلّ على التوبيخ مع التحضيض إذا وليها ماض، ودلالتها الأخيرة هي النفي؛ فتأتي بمعنى (ما) النافية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية

---

[1]- فقه السيرة ص: 275.
[2]- فقه السيرة ص: 430.
[3]- انظر: ارتشاف الضرب 1906/4، المغني بحاشية الأمير 1/ 215- 217.

آمنت﴾[يونس: 98] أي: ما كانت قرية[1].

ولها تداول فرد ورد في نصوص الكتاب وهو حذف الجزاء، الذي جاء في مقدمة الكتاب، قال: ((ولقد امتلك فنّ الرواية لأحداث التاريخ عند العرب والمسلمين منهجا علميًّا دقيقًا لرصد الوقائع، وتمييز الصحيح منها عن غيره، لم يملك مثله غيرهم؛ غير أنهم لم يكونوا ليكتشفوا هذا المنهج، ولم يكونوا لينجحوا في وضعه موضع التنفيذ في كتاباتهم التاريخية، **لولا** السيرة النبويّة التي وجدوا أنفسهم أمام ضرورة دينية تحملهم على تدوينها تدوينا صحيحا)) [2]. وأيضًا: ((لقد كان هذا قريبا من مقتضى محبة الله لرسوله، **لولا** أنّ النصر مرتبط بالقانون الذي ذكرناه)) [3]. وهو تداول مطرد وأصيل دلالته الشرط مع حذف الجزاء والجواب المترتب على ذكر الشرط.

6- **لو:** أخت غير شقيقة لـ(لولا)؛ فهي حرف شرطيّ غير عامل للجزم، وتدخل على الماضي والمضارع؛ وعُلِّل ذلك بتعليل لطيف مختصره: أنه لـمّا كثر دخولها على الماضي لم تعمل الجزم، وأمّا جوابها فمضارع منفي بـ(لـم)، أو ماض منفي بـ(ما)، والأكثر عدم اتصاله باللام، وقد تأتي حرفًا مصدريًّا، و(لو) المصدرية علامتها أن يصلح في موضعها أنْ، وتقع المصدرية غالباً بعد تمنٍّ أو ما في حكمه، كقوله تعالى: ﴿يودّ أحدُهم لو يُعمّر﴾[البقرة: 96]، ولا تحتاج حينها إلى جواب، وأمّا الوظيفة الثالثة الممتزجة بالوظيفة الدلالية لها فالتمنّي، نحو: ﴿فلو أنّ لنا كرة فنكونَ﴾[الشعراء: 102]؛ بنصب الفعل المضارع بـ(أنْ) مستترة، وقبلها الفاء. هذه أظهر وظائفها النحوية، وأما جواب (لو) فيحذف باطّراد، بخلاف جواب (لولا) [4].

لها وظائف دلاليّة متعدِّدة حسب مدخولها، والسياق الذي ترد فيه، قال أبو حيان: ((لو حرف امتناع لامتناع...يعني أنه يقتضي فعلاً ماضيًا كان يتوقع ثبوته لثبوت غيره، والمتوقَّع غير واقع...ولا يليها إلا ماضي المعنى؛ سواء أكان بلفظ الماضي أم المضارع، قال تعالى: ﴿أن لو نشاء أصبناهم﴾[الأعراف: 100]، أو منفي بـلم)...وأنها تستعمل بمعنى (إن) للشرط في

[1]- انظر: الجنى الداني ص: 597- 608.
[2]- فقه السيرة ص: 24، 25.
[3]- فقه السيرة ص: 121.
[4]- ارتشاف الضرب 1906/4.

المستقبل))[1]، وعبارة (امتناع لامتناع) أنّها تدلّ على تعليق فعل بفعل، والتقدير: حصول شرطها حصول جوابها، والكلام ينعكس، أي تصبح: حرف وجوب لوجوب، وتخرج عن كونها للتعليق في الماضي، وأمّا جوابها فلا يلزم كونُه ممتنعاً على كلّ تقدير؛ لأنه قد يكون ثابتاً مع امتناع الشرط، فتكون دلالتها على: امتناع شرطها، والآخر كونه مستلزماً لجوابها، ولا تدُلّ على امتناع الجواب أو ثبوته في الأمر، فإذا قلتَ: لو قام زيدٌ لقام عمرو، فقيام زيد محكوم بانتفائه فيما مضى، وبكونه مستلزِماً ثبوته لثبوت قيام عمرو [2]. كما أنها قد تأتي شرطيّة، ولكن لا تدُلّ على الامتناع، ومنه قوله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم﴾[الأنفال: 23]، ولها وظيفة دلالية أخرى هي العرض، كما أنها تَدُلّ على التمنّي، وفي كليهما لا تحتاج جوابًا وجزاءً، كما أنّ (لو) الشرطيّة الامتناعيّة قد تُشرَّب معنى التمني، ولها فائدة التقليل أيضًا [3]، كقول النبيّ ﷺ: ((التمس ولو خاتمًا من حديد)) [4].

ونلج نصوص الكتاب؛ لنسقط عليها هذه القواعد النظرية؛ فدلالة (لو) امتناع لامتناع، أصلٌ ثابت لها، ومعنى مُطّرد ورئيس من معانيها، من ذلك قوله: ((لعلنا لو أمعنّا في خصائص اللغات وقارّنا بينها، لوجدنا أن اللغة العربية تمتاز بكثير من الخصائص التي يعزّ وجودها في اللغات الأخرى. فأجدر بها أن تكون لغة المسلمين الأولى في مختلف ربوعهم وبلادهم))[5]. وأيضًا: ((ولو طبّقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزكاة، ومنعٍ للربا، وقضاء على مختلف مظاهر الاحتكارات؛ لعاش الناس كلّهم في بحبوحة من العيش))[6]؛ إلا إلا أن تطبيق الأحكام غابت وتقاعس عن تطبيقها الحاكم قبل الرعيّة، فلم يهنأ للناس عيش، وأصبحت حياتهم كدرًا وغمًّا، مع دخول اللام على الجواب، واطِّراد (لو) الامتناعية مع اتصال اللام بجزائها يفوق الحصر، قال البوطي: ((تعدّ حادثة شقّ الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إيّاه لأمر

---

[1]- ارتشاف الضرب 4/ 1898.
[2]- الجنى الداني ص: 272- 274.
[3]- انظر: حروف المعاني والصفات ص: 3، ارتشاف الضرب 4/ 1903، المغني بحاشية الأمير 1/ 205- 215، الجنى الداني ص: 287- 290.
[4]- خرَّج الحديث الإمام مالك في موطئه في باب (ما جاء في الصداق والحباء) برقم (1477) الجزء 1/ 572.
[5]- فقه السيرة ص: 50.
[6]- فقه السيرة ص: 285.

جليل...وليست الحكمة من هذه الحادثة- والله أعلم- استئصال غدة الشَّرّ في جسم رسول الله ﷺ ؛ إذ لو كان الشرُّ منبعه غدة في الجسم، أو علقة في بعض أنحائه، لأمكن أن يصبح الشرِّير خيِّرًا بعملية جراحيّة))[1]، وفي دلالة الشرط والتعليق قد يحذف جوابها، كما جاء في فضحه لأولئك المتبعين للكتاب الغربيين والمستشرقين في تأريخ السيرة النبوية، فقال: ((كما غاب عنهم أن الدين الصالح في ذاته لا يحتاج في عصر ما إلى مصلح يتدارك شأنه، أو إصلاح يغيّر من جوهره، غاب عن هؤلاء الناس هذا كله، مع أنّ إدراكهم له كان من أبسط مقتضيات العلم؛ لو كانوا يتمتعون بحقيقته وينسجمون مع منطقيته، لكنّ أعينهم عشيت في غمرة انبهارها بالنهضة الأوربية الحديثة)) [2]. فيقدر الجزاء بما ذكر قبل الأداة.

ومن تناوُب (لو) دلالتها على التمنِّي؛ فلا تنتظر لها جوابًا وجزاءً، من ذلك ما جاء في تعليق الإمام البوطيّ على المحدِّثين والمعاصرين من مُدوِّني السيرة النبوية كهيكل في كتابه: (حياة محمد)، فقد انتقد اتجاهه في تأريخه، خاصة في باب معجزات النبيّ ﷺ، فيقول: «فلا خوارق ولا معجزات في حياته عليه الصلاة والسلام؛ إنما هو القرآن...وانبرى الشيخ المراغي- شيخ الأزهر إذ ذاك- يقرظ الكتاب، ويبارك الخطوة الرائدة، وانطلق محمد فريد وجدي هو الآخر ينشر سلسلة مقالاته، داعيًا فيها إلى فهم الإسلام والسّيرة النّبوية عن طريق العلم، **ولو** اقتضى ذلك الإعراض عن الخبر الصادق الذي ثبت في الكتاب أو السّنة)) [3]. فلو هنا تداوُلها - حسب السياق والمقام- للأمر البعيد الوقوع والحصول، وهي تفقد شرطيتها إذا كانت للتمني، كما في النص السابق، ومن استعمالها وتداوُلها تأرجُح دلالتها بين الامتناع والتمنِّي والزيادة، من ذلك قوله: ((إذ ينصر خالق القوى والقدر عباده المؤمنين به الملتزمين بمنهجه، ويحقق لهم الفوز على من يشاء؛ بل الحيرة كل الحيرة كانت تقع لو أنّ الله التزم النصر لرسوله، والتأييد لعباده المؤمنين، ثم لم تقع معجزة ذلك النصر والتأييد)) [4]؛ فيجوز كونها شرطيّة امتناعيّة، ويقدَّر جزاؤُها قبلها، وتقديره - مثلا- : (لحصلت الحيرة ووقع الشكّ في النفوس المؤمنة...)، ويجوز أن تؤدّي مؤدَّى الزيادة والتوكيد؛ فيصبح لها تداولٌ ونيابة حصلت من جرّاء السياق، والتقدير: كانت تقع أنّ الله التزم النصر ثم لم

---

[1]- فقه السيرة ص: 73.
[2]- فقه السيرة، ص: 36.
[3]- من مقدِّمة الطبعة الثانية لفقه السيرة، ص: 11، 12.
[4]- فقه السيرة ص: 43.

يحصل النصر، وتحمل معنى التمنِّي الحاصل في نفوس المشكِّكين وكلامهم، أو هذا لسان حالهم ومناهم: أنّ الله التزم نصر عباده المؤمنين ثم أخلف- حاشاه ﷻ- وعده، وهذا بعيدٌ كلّ البعد، ولكن تمنّوا ذلك.

لقد كان تواصل البوطي مع مخاطبيه ومستمعيه عن طريق أداة الشرط (لو)، وتمثّل ذلك في تنوُّع دلالتها، فتداولها الكاتب بين شرط وامتناع وتمنّ، فلو تمعنّا ووقفنا للاحظنا تلوّن هذه الدلالات وتبادلها، حسب حال المخاطبين تنوّع استعمال الكاتب.

ومن خروج (لو) عن الامتناع والتعليل، وإلباسها ثوبًا دلاليًّا آخر قوله: ((وأنت خبير أنّ الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغيّر اللون، كلّ ذلك من الانفعالات القسريّة التي لا سبيل إلى اصطناعها والتمثيل بها، حتى لو فرضنا إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه عليه الصلاة والسلام، وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة إلى عكس ذلك))[1]. فهنا تحمل معنى التمني ودلالة الأمر المستحيل حصوله، علما بأن هذا التركيب (حتى لو...) لم يرد في نصوص الكتاب إلّا في هذا الموضع، والسبب في رأيي ضعف هذا الأسلوب أو النوع من الجمل. وبما ذكرته واخترته من نصوص وتراكيب أراه كافيًا ويعطي ومضة ونافذة على دراسات ومجالات كهذه.

الخاتمة والنتائج:

علينا أنّ نعلم أن العلوم اللسانية هي الأدب، والتاريخ، والعروض، والنحو، واللغة، والبلاغة، والأخيرة هي زبدة الكلام والخطاب؛ فهي التي ولّدت لنا صورًا لسانية متعدّدة أهمها الأسلوبية والتداوُليّة، وهاتان الصورتان لا تتّضحان إلا بالتحليل، فهو ليس استهلاكًا للنص المحلَّل المقتطع، بل التحليل أظهر لنا العلاقة التنظيميّة والترتيبيّة داخل النصّ النثريّ السرديّ، الذي تمّ عليه الإجراء والتطبيق، كما أنّه بالتحليل تبين أنّ النص ومنتجه هما مادّتان من موادّ التحليل الفعليّ للنصوص عامة، ولأشكال الخطاب المختلفة ومنها الخطاب السردي؛ وهذا يبثّ الروح في قواعد

[1]- فقه السيرة ص: 99.

العربية، فيخرجها من التقعيد والمعيار الجامدين إلى الحركة؛ أي مقاربة مفهوم اللغة والكلام، وسردا لما خلصت إليه واستنتجته أقول:

- النص السردي هنا يهدف إلى الإقناع بعالمية الرسالة المحمدية وشموليتها، ويهدف إلى التأثير في القارئ غير المسلم قبل المسلم؛ في أن يسلك ويتبع هذا النهج القويم.
- هناك حلقات تواصل ونقاط تجمع بين أنواع النصوص الأخرى، فالنص السرديّ في كتاب (فقه السيرة النبوية) نموذج حيٌّ دالٌّ على تعلُّقه وارتباطه بالنص الحجاجيّ في أهمّ هدف من أهداف النص الحجاجيّ؛ ألا وهو الإقناع والتأثير، وهو ما قد يكون محلّ بحث مستقبليّ.

- في الخطاب السرديّ نلحظ أنّ منتج النص، والذي يمثّله البوطيّ له إرادة صادقة في إيصال فكرته، وله تسلسل منطقيّ في سرد حكايته، مُعينه في ذلك إلمامه وإحاطته بالجانب النظري النحويّ، وفي مقدمته أسلوب الشرط.
- برز في نصوص الكتاب الجانب التداولي، فتعدّى ظاهر النص وسطحه، وولج إلى إشاريته.
- السرد وأسسه فيما وقفنا عليه من نصوص الكتاب لم تتعارض مع أصول وأسس النحو النظريّ.
- إنّ النّص السرديّ لدى البوطيّ هو نصّ موجَّه، وليس لمجرّد السرد والقصّ والحكايات.

- أوقفتنا قراءة الكتاب ذلك على اطِّراد أسلوب الشرط، وكثرة استعمال أدوات الشرط غير الجازمة كـ(أمّا) و(إذا)؛ فهما من أكثر الأدوات المستعملة في النص السرديّ.
- ندرة استعمال أداة الشرط (لولا) في نصوص الكتاب.

- اندثرت تراكيب وجمل لدى البوطيّ؛ بضعفها اللغويّ، وسبكها ونسجها المهلهل.

المصادر والمراجع:

- ارتشاف الضرب من لسان العرب، محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الأندلسي ت 745 هـ، تحقيق: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، طبع ونشر: مكتبة الخانجي– القاهرة، الطبعة الأولى، 1418 هـ - 1998 م.
- الأسلوب، أحمد الشايب، طبع ونشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية عشرة، 2003م.
- الأسلوبية (الرؤية والتطبيق)، يوسف مسلم أبو العدوس، طبع ونشر: دار المسيرة – عمّان: الأردن، الطبعة الثالثة، 1434 هـ- 2013 م.
- الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، مناهج جامعة المدينة العالمية، طبع ونشر: جامعة المدينة العالمية- كوالالمبور: ماليزيا، نسخة إلكترونية ضمن محتويات المكتبة الشاملة.
- أفعال الكلام في رواية "الأسود يليق بك"، سناء صحراوي، رسالة ماجستير، 1436 هـ- 2014 م، قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة حمه لخضر- الجزائر.
- أمالي ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر، ابن الحاجب المالكي ت 646 هـ، دراسة وتحقيق: فخر صالح سليمان قدارة، طبع ونشر: دار عمّار - الأردن، ودار الجيل – بيروت، 1409 هـ - 1989 م.
- بلاغة الخطاب وعلم النصّ، صلاح فضل، طبع ونشر: الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م.
- التحليل التداولي للخطاب الشعري. روميات أبي فراس الحمداني أنموذجًا، عمار لعويجي، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد بوضياف- الجزائر، 2016 م.
- التحليل النصي، رولان بارت، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، طبع ونشر: دار التكوين- دمشق، 2009 م.

- التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، طبع ونشر: دار الطليعة- بيروت، الطبعة الأولى، يوليو 2005 م.
- جريدة الثورة في سورية عدد (245)، تاريخ النشر: 16/ آذار=مارس / 1997 م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي ت 749هـ، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، طبع ونشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ - 1992 م.
- حروف المعاني والصفات، عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم البغدادي الزجّاجيّ ت 337هـ،
- الخصائص، عثمان بن جني أبو الفتح الموصلي ت 392هـ، طبع ونشر: عالم الكتب – بيروت، تحقيق: محمد علي النجار.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني ت 769هـ، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع ونشر: دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، 1400 هـ - 1980 م.
- شرح الآجرومية في علم العربية، علي بن عبد الله السنهوري، تحقيق: محمد شرف، طبع ونشر: دار السلام- القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ- 2006 م.
- شرح تسهيل الفوائد، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني ت 672 هـ، المحقق: عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، طبع ونشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1410هـ - 1990م.
- شرح قطر الندى وبل الصدى، عبد الله بن يوسف بن أحمد، ابن هشام الأنصاري ت 761هـ، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الحادية عشرة، 1383 هـ.
- العُدّة في إعراب العُمدَة، بدر الدين عبد الله بن محمد بن فرحون الجبائي المدني ت 769 هـ، تحقيق: مكتب الهدي لتحقيق التراث (أبو عبد الرحمن عادل بن سعد)، طبع ونشر: دار الإمام البخاريّ – الدوحة.

- علم لغة النص، سعيد بحيري، طبع ونشر: مؤسسة المختار–القاهرة، الطبعة الأولى، 1424هـ- 2004 م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني الأزديّ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع ونشر: دار الجيل- بيروت، الطبعة الرابعة، 1972م.
- العين، الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي ت 170هـ، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرّائي، طبع ونشر: دار ومكتبة الهلال.
- غريب الحديث، القاسم بن سلام الهروي، أبو عبيد، المحقق: حسين محمد شرف، ومراجعة: عبد السلام هارون، طبع ونشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية- القاهرة، الطبعة الأولى، 1404 هـ - 1984 م.
- فقه السيرة النبويّة مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي ت 1434 هـ، طبع ونشر: دار الفكر- دمشق، الطبعة الثامنة والعشرون، 1430 هـ- 1991م.
- فنّ الوصف في الشعر الجاهلي، علي الخطيب، الدار المصرية اللبنانية- القاهرة، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2004 م.
- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، خليفة بو جادي، طبع ونشر: بيت الحكمة- الجزائر، 2009 م.
- القصة العربية..عصر الإبداع "دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري"، ناصر الموافي، طبع ونشر: دار النشر للجامعات- القاهرة، الطبعة الثالثة، 1417هـ - 1997م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري ت 538 هـ، طبع ونشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، ابن منظور ت 711هـ، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، طبع ونشر: دار المعارف.

- لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ت 465هـ، المحقق: إبراهيم البسيوني، طبع ونشر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب– القاهرة، الطبعة الثالثة.
- اللغة والتواصل، اقترابات لسانية للتواصليين الشفهي والكتابي، عبد الجليل مرتاض، دار هومة- الجزائر.
- مبادئ تحليل النصوص الأدبية، بسام بركة، ماثيو قويدر، هاشم الأيوبي، طبع ونشر: الشركة المصرية العالمية للنشر(لونجمان)- القاهرة، الطبعة الأولى، 2002 م.
- مجلة اللسان المبين، يصدرها ويشرف عليها قسم اللغة العربية بكلية الآداب. جامعة طرابلس، ليبيا، العدد الثالث عشر، 2018م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (بحاشية الأمير)، لابن هشام الأنصاريّ ت 761هـ، طبع ونشر: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي- القاهرة.
- المفصل في صنعة الإعراب، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري ت 538هـ، المحقق: علي بو ملحم، طبع ونشر: مكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.
- المقال الوصفي (دراسة في ضوء نظرية الخطاب)، خيريّة يحيى، طبع ونشر: جامعة عين شمس- القاهرة، 2004 م.
- المقتضب، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي المبرّد ت 285 هـ، المحقق: محمد عبد الخالق عظيمة، طبع ونشر: عالم الكتب – بيروت.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني ت 684 هـ، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، طبع ونشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الثالثة، 1986م.
- موطّأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني ت 179هـ، تحقيق: بشار عوّاد معروف، ومحمود خليل، طبع ونشر: مؤسسة الرسالة، 1412 هـ.
- النحو الوافي، عباس حسن ت 1398هـ، طبع ونشر: دار المعارف- القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة.
- النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة وتعليق: تمام حسان، طبع ونشر: عالم الكتب- القاهرة، الطبعة الأولى، 1418هـ- 1998م.

- النص والخطاب والاتصال، محمد السيد العبد، طبع ونشر: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي- القاهرة، الطبعة الأولى، 1426هـ - 2005 م.
- نقد النثر، قدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية- بيروت، 1402هـ - 1982م.